من هم الهكسوس ...

هؤلاء الذين نصورهم غزاة في شعرنا ؟!

بقلم عبد الرحمن عمار

من هم الهكسوس ..؟ سؤال تفرضه علينا آراء بعض المثقفين ، ومنهم الشعراء بخاصة ، والذين يصورون هذه القبائل التي سكنت وادي النيل على انها قبائل اجنبية غازية عاثت في الارض فسادا وظلما طيلة وجودها هناك ، وان الشعب الذي يعيش حاليا في مصر ما هو الا من سلالة الاقوام التي كانت تسكن الوادي قبل دخول الساميين اليها اولا ، والهكسوس ، الذين هم بطبيعة الحال ينحدرون من الاصل السامي ، ثانيا هكذا يكون تصويرهم للامور ، فما اعتمه من تصوير !..

وعندما احاول الاجابة على هذا السؤال ، لا ادعي انني سوف آتي بجديد عن منشأ هؤلاء القوم واصلهم ، ولكنني سأعرض ملخصا بسيطا من خلال ما نقله المؤرخون وعلماء التاريخ والذين لا يهدفون من خلال دراساتهم الا اظهار الحقيقة التاريخية الكاملة عن أصل الهكسوس وجنسيتهم ، حتى اتوصل الى هدفي الذي من اجله سطرت هذه الكلمات .

يكاد يجمع معظم المؤرخين على ان منشأ الساميين في شبه الجزيرة العربية ، في البلاد المحصورة بين وادي النيل ووادي الرافدين ، ومنها بدأت تتسرب تلك الاقوام عبر الازمنة المتلاحقة نحو ذينك الواديين المذكورين . وكانت هجراتهم على موجات متعددة تعود اسبابها لعوامل هامة منها : ان القبائل البدوية كانت عندما يحل الجفاف والقحط والمجاعة تندفع للهجرة طلبا للماء والمرعى ، وكثيرا ما نشاهد في زمننا الحالي مثل تلك الهجرات وخاصة في بلادنا العربية حيث ما تزال القبائل الرحل ، ومنها القبائل المتحضرة والتي كانت تشكل في جنوب الجزيرة العربية دولا منظمة تمتهن الزراعة والصناعة والتجارة وتتمتع بالاستقرار والهدوء ، فكثيرا ما تدفعها الحروب والاضطهاد وضعف الدول وانهيار السدود وخراب المدن الى الهجرة نحو بلاد اكثر استقرارا وامنا .

وكنتيجة طبيعية فان اية اقوام مهاجرة هربا من الجفاف والقحط ، كان موئلها الاول هو الماء ، فالماء وخاصة عند الشعوب القديمة كان وسيظل اصل الحياة ، لهذا كانت الاقوام والقبائل تتوجه دائما اما نحو الشمال حيث الهلال الخصيب والعاصي والفرات ، واما نحو الغرب حيث وادي النيل والنهر الذي يجري فيه من جنوب بلاد النوبة حتى البحر المتوسط .

وكان هناك شكلان من الهجرة : الشكل السلمي حيث تهاجر القبائل باعداد قليلة طالبة الحياة والخصب تحت ظل اصحاب الارض الاصليين ، ومع مرور الزمن وتعدد الهجرات يصبحون قوة مميزة تؤثر في تلك الشعوب من الناحية المسلكية والحضارية ، وكثيرا ما تغتنم تلك القوة فرص ضعف الدول وتفسخها ، وتنقض عليها لتقيم على انقاضها دولا وحضارات هي مزيج من حضارات المهاجرين والدول المقهورة ، والشكل الثاني هو شكل الهجرات الغازية المفاجئة فالقبائل التي تهاجر باعداد وعدد كثيرة لا تثبت اقدامها في البلاد المنشودة الا بالغزو والقتال .

ولنعد بعد هذه المقدمة لنوضح منشأ الهكسوس واصلهم .

من المعروف تاريخيا ان العرب ينقسمون الى ثلاث طبقات ١ ـ العرب البائدة ٢ ـ العرب العاربة ـ ٣ ـ العرب المستعربة . ولا يهمنا هنا من هذه الطبقات الثلاث الا الاولى نظرا لان الهكسوس ينتسبون الى هذه الطبقة .

يفيدنا المؤرخون ان العرب البائدة ننحدر منها قبائل عاد وثمود والعمالقة وطسم ... وانها تنقسم الى قسمين : العمالقة وهم من نسل لاوز بن سام ، والقبائل الاخرى من نسل ارم بن سام ، ويقول جرجي زيدان في كتابه (العرب قبل الاسلام) « يريد المؤرخون بالعمالقة قدماء العرب وخصوصا اهل شمالي الحجاز مما يلي جزيرة سينا الذين فتحوا مصر باسم الشاسو (البدو او الرعاة) ويسميهم اليونان « هكسوس » . وكلمة هكسوس مؤلفة بالاصل الهيروغليفي من لفظين « هيك » وتعني ملك او امير و« شاسو » او « سوس » بادية او بدو ، ويكون معنى كلمة هكسوس : ملوك البدو او امراء البدو ، وهذه الصفة لا تطلق في ذلك الزمن الا على العرب » ويستند المؤرخون الذين يقولون بان اصل الهكسوس من العرب الساميين الى العدد الكبير من الكلمات السامية العربية التي توجد في الكتابات المصرية القديمة والى الرسوم التي اكتشفت في مقابر « بني حسن » .. وهي تعطينا فكرة عن الهجرات المتكررة التي قام بها الساميون الى مصر » (١)

للاسباب التي ذكرناها سابقا فقد هاجر العماليق (العرب) من الجزيرة العربية وتوجهت قبائل منهم نحو الشمال ، الى وادي الرافدين وعلى موجات متعددة ، وتوجهت قبائل اخرى نحو وادي النيل واقاموا هناك دولا وحضارات . ففي وادي الرافدين تمكن سرجون الاول حوالي (٢٤٠٠) ق.م من التغلب على السومريين سكان البلاد الاصليين واقام دولته ، ثم توسع بفتوحاته حتى وصل الى البحر المتوسط غربا والاناضول شمالا ، وتعد هذه الدولة اللبنة الاولى في

بناء تكوين الامة العربية وتثبيت اقدامها في تلك البلاد ..

ومن اعظم الدول العربية التي اقيمت في وادي الرافدين ، دولة حمورابي البابلية المشرع العظيم ، وقد توسع بالفتوحات كما توسع سلفه سرجون الاول ، وكانت الحضارة في عهده تعد من اعظم الحضارات في التاريخ القديم ، حتى في عصرنا الحالي لم تتوصل بعد اية دولة متحضرة في بعض النواحي كما توصل قديما اليها حمورابي وشريعته المشهورة تدل على ذلك . ويكفي ان نشير الى ان اول مدرسة في التاريخ بناها حمورابي لتعليم الاطفال وانه اعطى من جهة اخرى المرأة حريتها واستقلالها التامين ،حتى ان الكثيرات منهن كن موظفات في دواوين الدولة ومصالحها .

ودولة حمورابي هي اللبنة الثانية .....

اما في وادي النيل فقد ابتدأت الحضارة العربية تتوضح بتسرب الهكسوس اليه ، ففي باديء الامر كان العماليق يعيشون في ارض مديان شرق جزيرة سيناء وكان بينهم وبين العبرانيين عداء وحروب وهذا ما بينه كتاب التوراة حيث تردد اسم العماليق كثيرا . وبعد ذلك تقدم عمالقة الهكسوس بشكل هجرات متوالية في سيناء ومنها الى الصحراء الشرقية الواقعة بين وادي النيل والبحر الاحمر فظلوا مدة طويلة ينتقلون في تلك المناطق ، وكثيرا ما كان هذا الامتداد دون تصادم بين القبائل المهاجرة وسكان تلك المناطق طالما يظل هذا الامتداد سلميا حيث ان المصريين القدماء ما كانوا يعارضون مثل هذه الهجرات ، وتعاظمت قوة الهكسوس بتوالي الهجرات وامتدوا نحو حدود وادي النيل وتغلغل الكثير منهم بين شعوبه ، وكان للمتغلغلين فيما بعد دور فعال في انتقال الحكم من ايدي المصريين الى ايدي الهكسوس .

وعندما ضعفت دولة وادي النيل وتجزأت في عصر الاسرة الثالثة عشرة ، وثب المهاجرون واستولوا على الحكم بعد ان عظمت قوتهم كما ذكرنا ، وقد استخدموا في حروبهم المركبات والخيل واستعملوا السيوف والخناجر والنبال ، تلك الاسلحة وادوات النقل التي ما كان للمصريين معرفة بها من قبل ، وظلوا يحكمون البلاد قرابة مائة عام ، وقد اقاموا فيها حضارات راقية تشبه الحضارات التي اقيمت في عهد سرجون الاول وحمورابي في وادي الرافدين وقد « اشتهر من ملوك الهكسوس « حيان » او « خيان » ، وقد عثر المنقبون على بعض القطع الاثرية في عهده ، وهي تدل على امتداد حكمه الى سورية وبلاد الرافدين وحتى بحر ايجه كما انه امتد الى جنوب مصر حيث وجد اسمه على صخره جنوب طيبة .

وهذه القطع الاثرية تدل على توسع نفوذ هذا الملك الى تلك المناطق » (٢) نستنتج من هذا القول ان دولة عربية كبرى اقامها حيان الهكسوسي وهذه الدولة تعد اعظم من سابقتيها ، دولة سرجون الاول ودولة حمورابي اللتين شملتا وادي الرافدين وسوريا فقط بينما نرى ان دولة حيان قد شملت بالاضافة الى المنطقتين المذكورتين، مصر ايضا وربما الجزيرة العربية كذلك . اذن « فهي حضارة عربية منذ نيف واربعة الاف سنة تشبه نهضة العرب في صدر الاسلام، وللامم ادوار تشب فيها وتغلب .. فاغتنم العمالقة ضعف دولة النيل ودولة الفرات ، كما اغتنم المسلمون ضعف الروم والفرس بعد ذلك بثلاثين قرنا (٣) » . وهذه هي اللبنة الثالثة ..

نلاحظ مما سبق ان الهكسوس عندما حكموا مصر ما جاؤوها غزاة دفعة واحدة كالسيل يهدر مرة ليصمت الى الابد ، وانما جاؤوها على دفعات متتالية كالنهر الذي يحفر مجراه بهدوء ودراية ، انها عملية استيطان وتعمير طبيعيين بلغت من الزمن مئات السنين وهذا ما تفسره لنا هجرتهم السلمية والغازية معا ، حيث ان الشكلين يجب ان يحدثا حتى يتم الاستيطان كما بيناه لان الهجرات السلمية بمفردها لا تلبث جماعاتها وبعد فترة من الزمن من ان تذوب في الشعوب الاصلية ، وكذلك الهجرات الغازية الفجائية بمفردها ايضا، فان التصادم الذي تحدثه هذه الغزوات يعكس النفور وعدم الاندماج والتقارب بين الشعبين ، وقد تتخذ تلك الهجرات شكل الاحتلال والاستعمار وهذا الشكل لن يستمر مهما طال لانه سيرتد اخيرا امام نهوض الشعوب المغلوبة .

ولكن البعض مع الاسف قد ظن ان الاستيطان الهكسوسي لمصر يشبه الاستيطان اليهودي لفلسطين في الوقت الحاضر حيث ان الصهاينة بدأوا بالهجرة السلمية الى فلسطين منذ بداية القرن العشرين ولما قويت شوكتهم وثبوا واحتلوا البلاد ، تماما كما فعل الهكسوس ، ولكن النظرة المنطقية للامور تؤكد خطأ هذا الظن، نظرا للفارق الكبير بين الاستيطان القديم والاستيطان الجديد. ويتجلى هذا الفارق بالامور التالية :

١ كانت تتم الهجرات قديما بدافع حب البقاء من قسوة الطبيعة وبدافع الجوع الذي يسببه الجفاف والقحط ، بينما نرى ان الهجرات الحالية تتم بدافع حب السيطرة والجشع واستغلال الثروات الطبيعية والتمركز في المواقع الستراتيجية ، وكثيرا ما ترافق هذه الهجرات الحالية قوة الجيوش لحمايتها ، وهذا ما حدث لهجرات اليهود الى فلسطين حيث تمت تحت حماية الجيش البريطاني خلال احتلاله لفلسطين .

٢ ـ توضحت معالم الشعوب في العصر الحالي وترسخت جذورها في الارض التي تعيش عليها واصبح لكل شعب لغته الخاصة وتراثه الذي يستمد منه وجوده وبقاءه فضلا على ان الشرائع والقوانين الدولية قامت لحماية الدول والشعوب وخاصة المستضعفة منها، وان كانت تلك القوانين والشرائع تتم ضمن حدود ضيقة ، وهذا ما ينطبق على الشعب الفلسطيني على اعتباره جزءا من الامة العربية ذات التراث والحضارة والتاريخ الطويل ، على عكس الشعوب القديمة حيث لا شرائع ولا قوانين ولا « جوازات سفر » تمدد انتقال الاشخاص انها كانت قبائل وجماعات تفرض عليها ظروفها الحياتية التنقل والرحيل من مكان الى آخر ، فاينما وجد الماء القت مضاربها حوله، وعندما يظهر الشح والنضوب تهاجر منه وكذلك اللغة ، لم يكن لها في ذلك الزمن هويتها الثابتة ، انها كانت في طور التكوين، طور الاخذ والعطاء والتعديل ، لهذا وذاك كانت عملية الاندماج والتجاذب بين القبائل عملية طبيعية ، وهذا ما ينطبق على قبائل الهكسوس عندما حكموا مصر .

٣ ـ استمرت هجرات الهكسوس الى وادي النيل ، وقبل استيلائهم على الحكم ، قرونا متعددة وما كان هدف تلك الهجرات الاستيلاء والحكم عندما شدت الرحال وهاجرت غربا وانما كان هدفها مرعوفا، الماء والمرعى . بينما تمت هجرات اليهود بفترة قصيرة من الزمن لا تتعدى الخمسين عاما ، استولوا بعدها على فلسطين ، وكان هدفهم الاول ، وقبل ان يبدأوا بالهجرة هو الاستيلاء والسيطرة مما جعل الشعور بالنفور وعدم الاندماج طبيعيا بين الشعبين .

٤ ـ يرجح ان شعب الهكسوس الذي عاش في مصر يفوق الشعب الاصلي ، وهذا ما بينه المؤرخ الاسكندري المتوفى في اواسط القرن الثالث قبل الميلاد عندما ذكر ان سلاطيس وهو اول ملك من الهكسوس حكم في وادي النيل بنى مدينة اوراس وحصنها بالابراج والقلاع والاسوار واكثر من حاميتها حتى بلغ عددها (٢٤٠٠٠) مقاتل (٤) . وهذا ما يعزز القول : بان نهاية حكم الهكسوس في مصر ما هي الا نهاية احدى الاسر المتعددة التي حكمت مصر عبر التاريخ القديم . بينما نرى ان اليهود الذين يعيشون حاليا في فلسطين لا يتعدون المليونين من البشر داخل مائة مليون انسان هم سكان الارض العربية وهذا الفارق الكبير يؤكد على ان العنصر اليهودي الذي يعيش اليوم في فلسطين هو عنصر شاذ ، حتى ولو كان عددهم يفوق عددهم الحالي بكثير فانهم سيظلون عنصرا شاذا ومحتلين نظرا للمقومات التي تتسم بها القومية العربية .

هذه هي هوية الهكسوس ارجو ان تكون قد توضحت لمن كان

ينظر اليها بمنظار معتم وقد اظهرت الفارق الكبير بين الغزو اليهودي لفلسطين العربية وبين ما اسموه بالغزو الهكسوسي لمصر . وقد بقي ان اوضح الاسباب والظواهر التي دفعت البعض لان يظن مخطئا ان لا فارق بين الغزوين ، وهذه الاسباب والظواهر عديدة نجملها بما يأتي :

ان الهكسوس عندما حكموا مصر اقاموا هناك حضارة ورقيا ، كما ذكرت ، ولكن هذه الحضارة طمسها كره المصريين القدماء الشديد لمن اسموهم بالغزاة وازالوا من ارض مصر كل اثر خلفه الهكسوس بعد خروجهم منها ، كالنقوش والتماثيل والمعابد الدينية والتي كانت تدل على حضارتهم واصلهم كما فعل من بعدهم التتار عندما حاولوا تهديم التراث العربي . وعلى الرغم من حرص المصريين الشديد على اخفاء معالم حضارة الهكسوس فقد بقي القليل منها ، واكتشف اخيرا بعض الاثار التي تدل على اصلهم وعلى ملامح من حضارتهم . فقبل اكتشاف تلك الاثار لم يصلنا من تاريخهم سوى ما نقله المؤرخون المصريون القدماء حيث صوروهم غزاة قساة قلوب وهذا لا يظهر لنا الحقيقة الموضوعية اذا اعتمدنا على طرف واحد في تدوين التاريخ وخاصة اذا كان هذا الطرف يحمل في قلبه الكره والضغينة على الطرف الآخر ، ومع الاسف فقد جارى بعض المؤرخين في عصرنا ممن يحملون في نفوسهم بذور الاقليمية ، ما نقله المؤرخون القدماء دون تمحيص ولا دراية . وقد غذى بعض المؤرخين الغربيين ، لغايات في نفوسهم ، هذه النزعة لكي يتكرس الانفصال والتجزئة بين شعب الامة العربية الواحد ، وما علموا ان الحقيقة اكبر من كل شيء وان بذور التجزئة لا تنبت الا في ذوات النفوس الضعيفة وان التحلزن الاقليمي لا يتكون الا في ثقوب ضيقة.

وبكل اسف فقد انساق بعض الشعراء وانجرفوا مع تيار تلك النزعة الاقليمية ربما بقصد او بدون قصد تحت تاثير تلك الافكار الخاطئة . وعلى كل حال ، فالمنجرفون مع ذلك التيار هم مخطئون على كلا الوجهين .

ان الشاعر هو الطليعة الواعية الباحث دائما عن الحقيقة المطلقة الساعي الى توضيح معالمها . انه يستخدم اشياءه ووسائله الدقيقة ذات النفس الطويل والمدلول البعيد لكي يتوصل الى هدفه .. الى غايته ، فالشعر هو الاداة الثاقبة في الكشف عن الباطن .. عن الجذور .. عن المجهول من خلال ثنايا الموجودات التي يعايشها الشاعر او يحس بها ومن خلال الرمز الذي يتكشف في الاسطورة والحادثة التاريخية .

لذا وعلى اعتبار الشعر اداة كشف وايضاح ، فان من لا يحسن استخدام الحادثة التاريخية كرمز او يخطيء باستخدامها موضوعيا ، فانه يتوه في صحراء المجهول ويظل يدور في دوامة ضبابية باحثا عن ذاته الضائعة بدلا من ان يبحث عن الحقيقة من خلال تلك الذات ضمن خط واضح ومحدد . وبهذا تتنافر الاشياء وتنهدم قوالبها التي تشكل بنية القصيدة ثم تنتكس نحو الاسفل .. نحو الضياع، بدلا من صعودها الى غايتها هرميا نحو الاعلى .

صحيح ان الشاعر حر باستخدام الصور الشعرية التي تجنح نحو اللاواقع ، ولكن بقصد تغذية القصيدة بذلك التوهج النفسي للحالة الشعورية والحسية الكامنة في اعماق الشاعر وهذا التوهج ينعكس بدوره ليؤثر في نفوس الاخرين .(٥) ولكنه ـ الشاعر ـ ليس حرا باستخدام الاشياء الواضحة المحددة كالحادثة التاريخية ، كما يستخدم الصورة الشعرية من حيث التحوير والجنوح ، فليس من المقبول منطقيا ان نصور ـ نحن العرب ـ الهكسوس والتتار مثلا على انهم غزاة محتلون من ذات الصنف الواحد اذا ما علمنا ان الهكسوس هم من اصل عربي حكموا مصر ونقلوا اليها حضارتهم ورقيهم ورفدوا تلك الارض بالعرق العربي ، وان المغول على عكس الهكسوس هم من اصل بعيد كل البعد عن الاصل العربي ، جاؤوا من الشرق واجتاحوا الارض العربية مهدمين حضارتها وناقلين اليها الفوضى والخراب . وليس من المقبول ايضا استخدام الغزو الهكسوسي في الماضي رمزا للغزو الصهيوني في الحاضر ، نظرا لان تفسير الرمز في هذه الحالة يتجه نحو خط معاكس للخط الذي نهدف من خلاله الوصول الى النهاية المطلوبة ويضعنا بالتالي غزاة محتلين جنبا الى جنب مع الغزاة الحقيقيين .

مما تقدم ، فان معالجة الواقع عن طريق الاسطورة او الحادثة التاريخية شعريا تتطلب معرفة الاشياء المقصودة بجزئياتها الكلية مرورا بالدقة والذكاء والرؤيا الشاملة حتى تعطي القصيدة المدلول المطلوب وحتى يتوصل الشاعر ويوصلنا معه الى ما يهدف ، دون ان يقع في المتناقضات او يهدم المرتكز الواقعي الذي تقف عليه الحادثة التاريخية.

ان موروثاتنا التاريخية عزيزة علينا لاننا جزء من هذه الموروثات وامتداد لها ، فيجب ان لا نخطيء باستخدامها اذا كنا نود الصعود نحو قمة الحضارة .

دمشق — عبد الرحمن عمار

١ ـ انظر معالم تاريخ الشرق القديم لعبد العزيز عثمان صفحة ١١١
٢ ـ المصدر السابق صفحة ١١٥
٣ ـ انظر جرجي زيدان في كتابه (العرب قبل الاسلام) صفحة ٧٠
٤ ـ المصدر السابق . صفحة ٧١
٥ ـ من هنا تكمن الخطورة اذا ما تناولت القصيدة حقائق مغلوطة ، نظرا للتاثير الكبير الذي تحدثه في نفس القارىء . وهذا من الاسباب التي دفعتني لكتابة هذا البحث .

صدر حديثا

الشعر العراقي الحديث

مرحلة وتطور

تأليف
الدكتور جلال الخياط

دراسة موسعة تتبع سير تطور الشعر العراقي الحديث في مراحله الثلاث : ذروة التقليد في اواخر القرن التاسع عشر ، والفترة الموطئة للتجديد في النصف الاول من القرن العشرين او « التجديد الموهوم ومدرسة النثر المنظوم » وتتناول الشعراء : (الرصافي ، الزهاوي ، الكاظمي) ، وبعد ذلك يمثل الصافي وحسين مروان والجواهري المدرسة الشعرية المستقلة ، ثم مقدمة مستفيضة عن الشعر الحديث ومحاولات التجديد بعد الحرب العالمية الثانية مع دراسة مفصلة للشعراء : البياتي ونازك الملائكة وبدر شاكر السياب ، وآخرين .

منشورات دار صادر ـ بيروت